الوظيفة الأدبية

هل للْأدب وظيفةٌ في الحياة؟ ما وظيفَتُه؟

لا يمكن أنْ نُجيبَ إجابةً صارِمَةً في الموضوع لأن الفلاسفة والنُّقاد منذ أقدم العصور وإلى اليوم غير مُتَّفِقِين على إجابة مُحَدَّدة نظرًا للمواقف المختلفة. ولذلك نجد من يقولُ بعدم جدوى الأدب، وعدم وجود فائدة له، في حين يراه بعضٌ آخر جزءًا من المعرفة الإنسانية لا يُمْكن الاستغناء عليه.

القائلون بعدم جدوى الأدب

لعل الفيلسوف اليُوناني "أفلاطون"(427-347 ق.م)[1] أول الثَّائرين على الشِّعر والفنّ بصفةٍ عامةٍ بالرّغم من موهبته الفنية، فَهو لايرى عدم جدْوى الأدب فحسب، بل يقول بالأثر السّلبي للأدب في المجتمع، و يرى أن الشّعراء لا يمتلكون الحقيقة ولا التّفكير، فهم مثلُ النَّافورة يُرَدِّدُون ما تُلْقيه الآلهة على ألسنتهم، ويرى أنَّ الفنون ومنها الأدب قائمةٌ على التقليد (محاكاة المحاكاة) فالكون في رأيه ينقسم إلى قسمين: عالَمٌ مثالي أو عالَمُ المُثُل، ويتضمن الحقائق المطْلقة والأفكار والمفاهيم الخاصة وبالمُقابِل هناك العالَم الطبيعي أو عالَم الموجودات، وهو صورةٌ عن عالَم المثل، أو محاكاة له، فالشّجرة التي نُشاهدها في الطبيعة ما هي إلا صورةٌ عن الشَّجرة الحَقّة في عالم المثل، أمَّا الفن والأدب فما يوجد فيه هو محاكاة للطّبيعة التي هي بدوْرها محاكاةٌ لعالَمِ المُثُل، أيْ أنَّ الفن محاكاة المحاكاة، ومن هنا فالفن يبتعدُ عن الحقيقة ثلاثَ مراتٍ، أي أنه ناقصٌ وزائفٌ، وزيادة على ذلك فهم يُؤَثّرون على الناس ويثيرون في أنفسهم مظاهرَ الخوْف والشفقة والرَّحمة، والدولة في حاجة إلى أبطالٍ للدّفاع عنْها وفي حاجةٍ إلى مفكرين منتصرين للعقل لا للعاطفة. من هنا فقد أخْرج "أفلاطون" من جمهوريته الشّعراء وأبْقى على قدْرٍ ضئيلٍ منهم؛ أولئك الذين يحْتَكِمون إلى العقل[2].

وقد ازداد التَّشْكيك في قيمة الأدب بازدياد الاعتدادِ بالعقل، وازدياد الإشادة بالعِلْم وحقائقه ومناهجه وفوائده الجمة، ولذلك نجد في التّاريخ الأوربي، ومع سيطرة العلم طرْحًا لهذه القضية، ومما قاله أحدُ العلماء المناهضين للأدب «**العالِم والفيلسوفُ يتقدّمان ويسرّعان منْ تَطَوُّرِ المعرِفة، ويظل الشَّاعِر يتمرَّغُ في نِهايات الجهْل المهْجور، يخوضُ مستر "سَاوْثي" غبارَ الكُتب الصفراء، باحِثًا عن الأسْفار والحولياتِ القديمة لينْتقيَ منْها كلَّ مايراه سخيفًا وتافِهًا وباطِلا، وحين يتكوّن لديه كتابٌ مُبْتذَلٌ مليء بالأهوال يُؤلِف ملْحمةً، ويلتقط مستر "وردزورث" أساطير القرية من عجائزها وقِسسِها، الشّاعر هذه الأيام نصفُ بربري في جماعة**

1- يرى أفلاطون أن كلّ الفنون قائمة على التقليد (محاكاة المحاكاة) فهو يعتقد أنّ الوعْي أسبق في الوجود من المادة، وعليه فالعالم المادي صورة للعالم المثالي، والأدب محاكاة المحاكاة، أي محاكاة لعالم الطبيعة، ومن هنا بعده عن الحقيقة.

2- شكري عزيز الماضي: في نظرية الأدب، ص 28

مُتمدنةٍ، فعواطِفُه وأفكاره ومشاعرُه كلّها تتم بطرائقَ بربرية، وعاداتٍ منسيةً وخرافاتٍ مُهْمَلةً، إنّ مسيرة فِكره تُشْبه مسيرة السَّرَطان إلى الخلف » [3]

وظائف الأدب

بالمقابل، هناك من يرى الأدب ضروريًّا في الحياة، ويعتقد أنَّ الحياة لا تقومُ فقط على العلُوم والتّكنولوجيا فلا بد لها من الفنِّ بكل أشكالِه وألوانِه ومن ضمن الفنون الأدب بِمُختلف أجناسه من شعر ونثر، وقد تعددت الوظائف بتعدد المدارس والتّيارات، ولعل من أهم الوظائف نذكر:

I. التطهير:

فكرة التّطهير تعود إلى"أرسطو"الذي يرى أن الدّراما، تُظهِرُ للمتفرجين مناظرَ مُثِيرَةً، فتجعلهم يتطهرون من الأمور المكبُوتة في نفوسهم، وبالتّالي فهم يتخففون من آلامِهم، ويُحَقِّقُون التّوازن النَّفسي الذي يؤَثِّر على النَّاحية الاجتماعية وعلى العمل وعلى الحياة بصفة عامة. وكلمة التَّطْهير هي ترجمة للكلمة اليونانية "كاتَارْسِيسْ "Catharsis وهي كلمة طِبيّة تعني المعالجة بنفس الدّاء، وهو ما ندعوه التّلقيح؛ حيثُ المعالجة تكون بالمُواجهة، « **وهذه الوظيفة وظيفةٌ جماليةٌ نفسيةٌ أخلاقيةٌ اجتماعيةٌ تربويةٌ»** [4]

II. المُتعة والتَّسْلية

من الوظائف التي قالتْ بها بعض التّيارات والمذاهب القول بأن الفن والأدبَ لا غاية له وأن غايتَه هي المُتْعَة والتَّسْلية: والذي نادَى بذلك هم أصحاب الفلسفة المثالية وبخاصة "كانت" (1724-1800) ف"كانت" يرى أنَّ كلَّ عمل فنيّ ذو وِحْدَةٍ جوْهرِيّةٍ في حدِّ ذاتِه، وجمالُه يكمن في هذه البِنْيَة، دون النَّظَر إلى المضمون أو إلى الغاية، وكان "كانت" يؤمنُ بالفرد وبالذاتية وبالعبقرية. ويرى أنَّ الحُكْم الجمالي يختلفُ عن الأحكام العقلية المَنْطِقِيّة، فالحكم الجمالي صادرٌ عن الذَّوْق الذي يُصدر الحُكْم عن رضى لا تدفع إليه منفعةٌ، فالرَّسام يُعجب بفاكهة أو يُصورها، ولكنه لا يشْتَهي أكْلَها أو بيْعَها بوصفه فنَانًا. [5]

أما المدارس والنّظريات الأدبية التي قالتْ بهذه الفِكْرة فهي نظريةُ الخلْق بالدّرجة الأولى، ومن قبْلِها نظرية التَّعْبير، حيث إنَّ نظريةَ التَّعبير ظهرتْ مع ظهور البُرْجوازية فدعتْ إلى حرية التَّعبير، ولكنْ مع صعود البرجوازية تحول الأدب إلى سلعةٍ، فنادتْ نظرية الخلق بإعادة الاعتبار للأدبِ وتحريره من التَّبَعِيّة. وقد كان "كانت" يرى أنَّ لكل شيء غاية ماعدا الجمال فَأَمَامَهُ نَحُسُّ بمُتْعةٍ تكفينا الغاية، ويرى "جُوتييه" أنه لا وجودَ لشيء جميل إلا إذا كان لا فائدة منه. ومن

3- عدنان يوسف سكّيك (ضرورة الأدب لحياة الفرد والمجتمع) بحث أُلْقي في المُلْتقى الدولي حول جدوى الأدب في عالمنا اليوم، المنعقد بباتنة، الجزائر، في 14-16 ديسمبر 1986. ص 03

4- عزت السيد أحمد: وظيفة الفن، خدوس وإشراقات للنشر، عمان، ط2، 2013 ص 35

5- محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، اكتوبر1997، ص 285

المفيد الإشارة إلى أن هذه النَّظرية أكدتْ على النقاط الآتية المرتبطة بالأدب:

- النظر للأدب كتَسْلية
- الأدب تِكْنِيك، فالأديب يسْتَمْتِعُ بالصِّياغة الفنية في حدِّ ذَاتِها، وليس بالأفكار أو الموضوعات المَطْرُوقة
- الفن للفن والشِّعْرُ للشّعر، بمعنى أنَّه ليس من واجب الأديب أنْ يخدم أيَّ جهة كانت؛ لا أخلاقية ولا سياسية ولا دينية، هدفُه الصِّياغة الجميلة المُمْتِعة وكفَى. وكان من الوجوه الأدبية لهذا الاتجاه الشّاعر الفرنسي "شارل بودلير Charles Baudelaire 1821-1867" الذي يرى أنَّ موضوعَ الشّعر هو الشّعرُ نفسُه، وأن الشّعر لا يُمْكِنُ أنْ يتمثّل بالعِلْمِ أو بالخُلُق، وإلا كان مُهَدَّدًا بالموت أو الخُسْران، فالشّعر ليس موضوعُه الحقيقة، وليس له من موضوع سِوى الشّعرِ نفسِه، وفي تسمية "بودلير" ديوانه "زهور الشّر" ما يدل على عِنايتِه بالجمال برغم الشّر، بل بوجود الجَمَال في الشّر[6]

ومن أعلام هذا التوجه في الأدب نذكر فضلا عن شارل بودلير "إدْقَارْ أَلَانْ بُو Edgar Allan Poe 1809-1852" الذي تأثر به "بودلير" و"بندتو كروتشه1866-1956" الناقد الإيطالي صاحب فكرة الحدْس في الفن.

III. الوظيفةُ المعرفية

بعضُ النّظريات تربِطُ بين الدَّوْر الاجتماعي التَّنْمَوِي والأدب، فلا ترى الأدب مجردَ تسليةٍ، بل تَعُدُّه تصويرًا للواقع، وليس تصويرا فُوتغرافيا بل تصويرًا دقيقًا لحركية المجتمع، صحيح أنّه يدخلُ ضمن إطار البِنْيَة الفوقية في المجتمع، ولكنه يؤثر في البنية التَّحْتية، ويُقدم خِدمةً للمجتمع، وقد قالتْ بذلك نظرية الانعكاس، فالأديب عندهم لا يكتفي بتصوير ما هو واقعٌ فحسب، بل يُصَوِّرُ ما ينبغي أن يكون، يصور طموحاتِ الأمة وتطلعاتها وهو ما يُسَمى بالوعي الممكن.

رسالة الأدب وقضية الالتزام

دعت الاتجاهات المادية في الأدب والفلسفة الوجودية إلى ضرورة التزام الأدباء بقضايا النّاس والتعبير عنها بحرية وتلقائية، باعتبار أن الأديب يعيشُ ضمن جماعةٍ، فهو لا يهتم فقط بنفسه وبمصيره الفردي، لأنَّه جزءٌ من المجتمع، وعمله الأدبي هو وعيٌ بعالَمٍ محدد في فترة زمنية وموقف محدد. وللكاتب دورُه في كشف حقيقة النَّاس للناس، وعلاقاتهم فيما بينهم وعلاقاتهم بالأشياء، بتصوير ذلك وتوضيح موقفه من القضايا المطروحة والمواضيع المطروقة، [7] ومن أبرز من دعا إلى الالتزام"جان بول "سارتر Jean-Paul Sartre " 1905- " ولكنه قصر الالتزام على النثر دون الشعر، أما الماركسية فقد دعتْ وبالغتْ في ضرورة تَقَيُّدِ الأدباء بالالتزام، وهنا ينبغي أن

6- محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث ، ص 291

7- محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث ، ص 327

نفرق بين مصطلح الالتزام الذي يعني تَبَنِي قضايا الجماهير والدّفاع عنها بصدقٍ وتلقائيةٍ، وبين ما يسمى بالإلْزَام وهو التّعبير على قضية معينة بغير حُرّية، وهذا هو الخطر الذي حذَّر منه الفلاسفة والنُّقاد وعلى رأسهم "سارتر"، لأنّه في مثل هذه الحالات يصير الأدب نوعًا من الدِّعاية، والمفروض أن يكون الأدبُ نابعًا من ضمير الكاتب وصدقِه وأصالتِه. (8)

وللكاتب توفيق الحكيم مقالٌ عن إهمال الدولة لدورالأدباءِ، جاء فيه: «**أمام كل هذا وقفَ الأدبُ ذليلًا لا حول له ولا طوْل، وضاعتْ هيْبَةُ الأدباء في الدولة والمجتمع، وأنكرَ الناسُ ورجالُ الحُكْم على الأديب استحقاقَه للتقدير الرّسمي والاحترام العام، فالعمدةُ البسيط تعترفُ به الدّولة، وتدعوه رسْميًّا إلى الحفلات باعتباره عمدة، أما الأديب فمهما شَهَرَهُ أدبُه فهو مجهول في نظر الرّجال الرّسميين، ولن يخاطبوه قط على أنه أديب**» (9)

ويَرُدُّ عبّاس محمود العقاد على توفيق الحكيم رافظا أنْ تُقدِّر الدولةُ الأديبَ فهو غير محتاج لذلك أصلا، ويُبَيِّنُ العقاد رسالةَ الأديب بقوله: كلام الأستاذ الحكيم ... هو الذي ابْتَعَثَنِي إلى التَّعقيبِ عليه فيما يلي من خواطرَ شَتَى عن رسالة الأديب، وشأنِ الأديبِ والدولة، ومستقبلِ الأدب في الدّيارِ المصريةِ، أو في الديارِ الشّرقية على الإجمال. فهل من الحق أن الأدبَ محتاج إلى اعترافٍ من الدّولة لحقوقه؟

أما أنا فإنّني لأَسْتَعِيذُ بالله من اليوم الذي يتوقف فيه شأنُ الأدب على اعتراف الدّولة، ومقاييس الدّولة ورجال الدولة، لأن مقاييس هؤلاء الرّجال ومقاييس الأدب نقيضان، أو مُفْتَرِقَان لا يلتقيان على قِياس واحد. فمَقَاييس الدولة هي مقاييس القيّم الشائعة التي تتكرر وتَطَّرِدُ، وتجري على وتيرةٍ واحدةٍ .ومقاييسُ الأدب هي مقاييس القيّم الخاصة التي تختلفُ، وتتجدَّدُ وتسبِق الأيام . وبعد ذلك يتساءل أَلِلْأديب رسالةٌ؟ ويجيب بالقول: نعمْ، ليس بِالأديبِ منْ ليستْ له في عالَم الفكر رسالةٌ، ومن ليسَ له وحيٌ وهدايةٌ . ولكن هلْ للأدب كلِّه رسالةٌ تتفق في غايتها مع اختلافِ رسائل الأدباء، وتعدُّدِ القرائحِ والآراء؟

نعم، لهم جميعًا رسالةٌ واحدةٌ هي رسالة الحرية والجمال. عدوُّ الأدب منهم من يخدم الاستبداد، ومن يُقَيِّدُ طَلاقةَ الفِكْرِ، ومن يُشَوِّهُ محاسنَ الأشياء . وخائنٌ للأمانةِ الأدبيةِ من يدعُو إلى عقيدةٍ غيرِ عقيدةِ الحرية، لكل أديبٍ رسالةٌ . ورسالة الأدباء كافةً هي التّبشيرُ بدينِ الحرية والإنْحَاءِ على صَوْلَةِ المُسْتَبِدّين. (10)

8- جان بول سارتر: ما الأدب، ص 108،

9 - عباس محمود العقاد : يسألونك، https://www.hindawi.org/books/85807391/1

10- عباس محمود العقاد : يسألونك،